على مقهى فى الشارع السياسى

إحسان عبد القدوس

قال الشاب وهو يلوى شفتيه امتعاضا :

– هل قرأت الخبر ؟ !

وقال العجوز مبتسما فى هدوء :

– أى خبر تقصد ؟ . . لقد مضى على أكثر من أسبوعين وأنا لا أقرأ الأخبار ، بعد أن تعبت من الوصول إلى خبر مهم أو خبر صادق . .

وقال الشاب معترضا :

– لا يمكن الاستغناء عن قراءة الأخبار حتى لو كانت تافهة أو كاذبة . .

وقال العجوز كأنه يتحسر :

– ربما كان ما أبحث عن قراءة الأخبار هو الملل . . لقد ملئت قراءة ماينشر عن أخبار لبنان وأخبار اسرائيل وأخبار الحركة الفلسطينية . وملئت ما ينشر عن أخبار إيران وأفغانستان وليبيا و . . و . . كلها أخبار مكررة . . ما أقرؤه اليوم هو ما قرأته أمس وما سأقرؤه غدا . . لا جديد . . حتى الأخبار الداخلية الخاصة بالقضاء على العلاء . . لقد حاولت أن أقرأها فلم أفهم منها شيئا ، فاكتفيت أن أذهب كل يوم إلى السوق وأشترى . . إن الناس لا تعرف الأسعار من قراءتها فى الصحف ، ولكنها تعرفها وهى تشترى . . وقد ثبت أن كل ما تنشره الصحف أوهام لا تجد لها أثرا وأنت تشترى . .

وقال الشاب محتدا :

– ان ما قرأته خبر هام يثير الحيرة والدهشة . .

وقال العجوز بلا اهتمام :

– ماذا قرأت . . ؟

وقال الشاب وهو لا يزال محتدا :

– قرأت أن الثوار فى أفغانستان يحاربون بأسلحة أرسلت اليهم من مصر . .

وقال العجوز فى برود :

– هذا أمر طبيعى ليس فيه جديد . .

وصاح الشاب مقاطعا :

– كيف يكون طبيعيا أن ترسل أسلحة إلى أفغانستان وبيننا وبينها آلاف الأميال ؟ . . إننا لا نقف مع أفغانستان فى خط دفاعى واحد . . بل نحن لا نقف بالنسبة لها فى الخط الدفاعى الثانى . . ربما كنا فى الخط الدفاعى الثالث . . فإذا لا نحفظ بأسلحتنا حتى يضرب منا ميدان القتال . . على الأقل نحتفظ بها لمواجهة الأسلحة المجنونة التى يحميها الملالى ويهددنا بها ؟ . .

وقال العجوز وهو يحاول أن يحتفظ بهدوئه :

– يا ابنى . . ان الموقف العالمى يحملك مسئوليات واسعة . . ان موقفك اليوم يفرض عليك أن تشترك فى مقاومة السلاح السوفيتى فى أى مكان . . وزمان . . عندما كان موقفنا العالمى مربطا بالسوفيت . أرسلنا أسلحة وقوات مصرية إلى الكونغو . للاشتراك فى الثورة التى قام بها لومومبا . لأنها كانت ثورة تتفق مع موقفنا العالمى . . بل إننا لم نحارب فى اليمن إلا بعد أن قدرنا اتخاذ موقف الثورة اليمنية العالمى مع موقفنا . . ثم بعد أن تغير موقفنا العالمى . . أى موقفنا بين أمريكا وروسيا . . أرسلنا أسلحة وخبراء عسكريين إلى زائير . لأن الموقف هناك كان يتفق مع موقفنا العالمى . .

وعاد الشاب يصيح مقاطعا :

– ماذا نحمل وحدنا هذه المسئوليات العالمية ؟ . . لماذا لا تتولى باكستان ارسال الأسلحة إلى أفغانستان . . أو ترسلها إليها اليابان . . أو السعودية ؟ . . إنها دول قريبة من أفغانستان وهى كلها دول تشترك معنا فى الموقف العالمى . . أى أننا كلنا أصدقاء لأمريكا . .

وقال العجوز بلا حماسة :

– هذا يعتمد على توزيع السلاح بين الدول . . وسوق السلاح يحسب فيها حساب كل رصاصة . . ولاشك أننا حسبنا الحساب الذى طمأننا إلى أن إرسال الأسلحة إلى أفغانستان لا يؤثر على حاجتنا إلى السلاح . . وإذا كنا نعتمد على استيراد الأسلحة من أمريكا فإن أمريكا أيضا حسبت حسابها . وهى تطلب منا ارسال السلاح إلى ثوار افغانستان . وأكدت لنا أن حاجتنا إلى السلاح فى الجبهات الأخرى لن تتأثر . .

وصرخ الشاب :

– ولماذا تربط حساباتنا بحسابات أمريكا ؟ . . لقد سبق أن قلنا إننا قررنا أن نعدد مصادر السلاح . .

وقال العجوز وهو يبتسم ساخرا من صراخ الشاب :

– وقد سبق أن قلت لك إن مصادر السلاح لا يمكن أن تتعدد سياسيا . . إنك إذا اشتريت السلاح من أمريكا أو من فرنسا أو من انجلترا أو من اليابان أو حتى من الصين . فإن موقفك السياسى العالمى لا يتغير . فعندما تشترى السلاح من روسيا أو من تشيكوسلوفاكيا أو من ألمانيا الشرقية . فإن موقفك السياسى أيضا يبقى كما هو . . ان جميع مصادر الأسلحة تدخل ضمن الكتلتين . . الكتلة الغربية والكتلة الشرقية . . ولن تحصل على سلاح من إحداهما إلا إذا ضمنت موقفك السياسى معها . .

وعاد الشاب يصرخ :

– إننا ندفع ثمن السلاح الذى نشتريه . . وندفع بالعملة الصعبة . الصعبة جدا . . وإذا كنا مضطرين إلى الدفع بالتقسيط أو عن طريق القروض . فإن السعودية مثلا تستطيع أن تدفع فورا . . وكل دول العالم مهما كانت كبيرة فى حاجة إلى هذه الدولارات . . فى حاجة إلى التجارة . . فلماذا نربط شراء السلاح بالسياسة العالمية ؟ . . لماذا لا نستطيع أن نجمع بين السلاح والحرية السياسية ؟ . .

وقال العجوز وهو يتنهد فى أسى :

– يا ابنى إن الدول المصدرة للسلاح مهما طمعت فى الأرباح فإنها تخضع أطماعها لحدود الموقف السياسى العالمى . . لقد أصبح تصدير السلاح هو قوة السيطرة على دول العالم الثالث . . ودول العالم الثالث قد تصل للحفاظ على كيانها وعلى نظم الحكم فيها . إلى الاستغناء عن استيراد المواد الغذائية والغربية . ولكنها لا تستطيع أن تستغنى عن استيراد السلاح . . ومادامت قد استوردت السلاح فهى مضطرة إلى الخضوع للموقف السياسى الذى تقفه الدولة المصدرة . . وهذا هو الدافع الأساسى للمعارك التى تدور بين أمريكا وروسيا فى دول العالم الثالث . . انها معارك بين مستوردى السلاح تنهى معارك بين مصدرى السلاح . . الحكومة مثلا فى الدولة الصغيرة تستورد السلاح من روسيا فتقوم المعارضة أو الثورة باستيراد السلاح من أمريكا . . أو العكس . .

وقال الشاب وقد خفت صوته وركبته الحيرة :

– لا حل إذا أن تقوم كل دولة بتصنيع سلاحها على أرضها . .

وقال العجوز فى رثاء :

– حتى هذا لا يمكن . . فان آلات التصنيع تستورد هى الأخرى من الدول المصدرة . ثم إن صناعة الأسلحة تتطور بسرعة إلى حد لا تستطيع معه الدول الصغرى أن تلاحق هذا التطور . وتضطر إلى الاستيراد . . إن الحرية السياسية يا ابنى مهما بلغ مداها فهى محكومة بحاجتك إلى السلاح . .

وقام الشاب يجرى وهو يقول :

– سأشترى سكينة فرن غزال حتى احتفظ بحريتى . . انها تصنع محليا ، ولن احتاج إلى أمريكا أو روسيا . .